الايمان الفلسفي عند كارل يسبرس

عبدوس سيدي محمد / جامعة وهران2

توطئة

تجدر الإشارة إلى أن مهمة تحديد التجربة الإيمانية عند «كارل يسبرس»، تُلزمنا أن نسلّط الضوء على مؤلفه العمدة في هذا المجال وهو الموسوم ب» الإيمان الفلسفي» الذي ظهر عام 1949تُرجم من اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية عام1953من طرف «جون هارش[1]»و»وهالن ناف»، حيث يضع فيه «كارل يسبرس» فكرة اللامعقول كمقولة جوهرية ويعدها من أساسيات الإيمان.

يبدو أن هذا المؤلف يعمد فيه «كارل يسبرس» إلى استخدام المنهج الفينومينولوجي، فهو يروم إلى وصف التجربة الإيمانية كما تتبدى في الشعور. ويمكننا أن نلجأ أيضا إلى إنتاجاته الأخرى، التي يلمّح فيها قليلا أو كثيرا إلى هذه التجربة، مثل مؤلفه الشهير»مدخل إلى الفلسفة».

والآن نتساءل :هل الايمان عند يسبرس يتماثل مع الايمان المسيحي؟ وإذا افترضنا غير ذلك، فهل هو يشبه ايمان الوجوديين المسيحيين أمثال «غابرييل مارسيل»و»باول تيليش»؟ وإذا كانت الإجابة الافتراضية غير ذلك أيضا، فهل هو فهم مغاير لما نعرفه من مفاهيم الفلاسفة للايمان؟

أ- مفهوم الإيمان

يكشف كارل يسبرس أنه يوجد نوعين أو فهمين للايمان :الأول ايمان كلاسيكي، تقليدي يستند على القبول، ويقوم على التسليم والخضوع، صاحبه لا يُناقش ولا يسأل، يمضي طوال كينونته يقلد ويتبّع، وإن خامره شك في عقله ، شعر بوخز الضمير، وهذا النوع من الايمان نلمسه عند الإنسان الخاضع لسلطة الكنيسة، والمعتقد في صلاحيتها وعصمتها. أما الثاني ايمان حديث أوفهم جديد للايمان، يقوم على العلم والعقل والبصيرة الفلسفية.

يتنافى هذا الايمان مع الشعودة والأباطيل والسحر.إنه ينادي بحرية التفكير وينبذ باحتقار الأحكام المسبقة، ولا يقوم على التصديق الأعمى للأشياء إلا بعد فحصها وغربلتها من الشوائب، وذلك بميزان العقل والمنطق.

يقول»كارل يسبرس» :» إن هذا التعالي يمكن الوصول إليه، من خلال الجهد الذي يبذله الإنسان، في محاولة للسمو بنفسه أو العلو بها، إلى درجة التحقق في هذا التعالي. وذلك في حالة كون الإنسان حرا.فمن دون الحرية لا يمكن للإنسان أن يحقق ذلك.فالحرية هي الطريق الممهد للوصول إلى ذلك.»[2]

معنى هذا أن حقيقة الايمان أو الرب لا يمكن بلوغها بواسطة آباء الكنيسة والأنبياء والوحي أو أي مصدر آخر، غير البصيرة الفلسفية، أو كما يدعوها كارل يسبرس الحرية من كل سلطة دوغمائية تدّعي القبض على الحقيقة المطلقة، وتخوّل لنفسها الحجر على عقول الناس.

ويقول في موضع آخر:" فنحن لا نستطيع أن نقبل التبعية كما تتضمنها المذاهب اللاهوتية مثلا، حيث لا تستطيع الحرية أن تمارس نشاطها إلا عندما يحركها الله."[3]

إن الايمان عند كارل يسبرس ليس هو الذي يُحدد سلفا من الخارج، كون هذا الأخير يضحى خطرا يهدد الإيمان

الأصيل للكائن الوجودي. إنه ايمان براني(خارجي) يقوم على الشعائر الشكلية الفارغة من المضامين الحقيقية، وعلى الطقوس الكنسية البالية التي عفا عنها الزمن، والتي تُكره الإنسان وتصفّد إرادته وحريته، وتنحت منه كائنا تابعا مقلدا لا يملك زمام وجوده.

يخدم الايمان التقليدي الذي يعتنقه الأغلبية من الناس، مصالح الكهنة وغاياتهم، ولبلوغ ذلك أجبروا الناس على الإيمان ببعض العقائد والأباطيل، وصوروا للناس إلها مضادا لطبيعته وجوهره. ويزينون للناس عبارات جميلة تدغدغ انفعالاتهم، حتى يصبحوا فريسة سهلة لهم. يقول كارل يسبرس:" أما الشرط الأول والوحيد عند الفيلسوف، فهو الصحة، والإخلاص، وبسبب من هذا الإخلاص وتلك الصحة، خرجت، من إحدى الكنائس، خوفا من أن يسيطر علي الانفعال بطقوس العبادة، بعد أن دخلت إلى هذه الكنيسة، خلال إحدى سفراتي على هيئة زائر، أثناء الصلاة، ذلك أنني لم أكن أريد أن تمتزج في نفسي مع التجربة الدينية الخالصة، انفعالات جمالية غريبة."[4]

من هنا نستشف تهكم "كارل يسبرس" من الأساليب الملتوية التي تكرسها الكنيسة للعبث بمشاعر الناس، ونلاحظ أنه يصفها بالغريبة؛ كونها مخالفة لجوهر تجربته الايمانية ، الأمر الذي دفع به إلى مغادرة الكنيسة فورا.

يشير" كارل يسبرس " إلى أن الإنسان ، بإمكانه النفاذ إلى إستكناه حقيقة الايمان، والولوج إلى اليقين الرباني دون الإرتكاز على الوحي أو النبوة .بل يصر على أن حرية الفكر والبصيرة الفلسفية؛ سبيلان لا يستهان بهما في بلوغ ذلك .

يقدم كارل يسبرس حجة تاريخية يطعم بها تصوره، هي أنه قبل انبثاق زمن الوحي وبأمد بعيد، عرف العديد من الأشخاص في العالم الغربي المسيحي فكرة الرب يقول: " فالقضية اللاهوتية هي: أننا لا نستطيع أن نعرف الله إلا لأنه كشف عن نفسه لعدد معين من الناس، يبدأ بالأنبياء وينتهي بالسيد المسيح ..وبغير هذا الوحي لا يمكن أن تكون لله حقيقة بالنسبة للإنسان..والله في متناول الإنسان لا عن طريق الفكر، بل عن طريق الإيمان والتسليم..غير أنه قد كان هناك يقين عن حقيقة الألوهية قبل قيام عالم الوحي المقدس بزمن طويل، وخارج هذا العالم أي عالم الوحي المقدس .وكثير من الناس داخل العالم المسيحي الغربي قد استمدوا يقينهم بالله دون ضمان من الوحي."[5]

هذا كله يؤكد الايمان الحديث كما يتصوره " كارل يسبرس"، وهو ايمان ينبني على البصيرة الفلسفية والعلم، ويبتعد عن السحر والخرافة وآباء الكنيسة. إنه نبع فياض يتولد من أعماق وجود الإنسان وينبثق من أصله الروحي، وتعكسه الحرية الوجودية. إنه اكتشاف داخلي للعلو، يجد الإنسان نفسه في حوار لا متناه معه.

هكذا يتبين لنا أن مفهوم الايمان عند " كارل يسبرس" مفهوم فريد من نوعه، له ذوق وطعم لا نجد له نظير في الوجودية المسيحية، ولا في الدين المسيحي، إنه يعكس بحق أصالة الفكر الوجودي الذي يتمرد على التقاليد البالية والخرافات الباطلة، وعلى كل من يمنح لنفسه الوصاية على الإنسانية، ويحرمها شرف بناء مشروعها الوجودي.

- ب الإيمان الفلسفي

يستهل "كارل يسبرس" مؤلفه "الإيمان الفلسفي " بالتساؤل عن معنى الإيمان. ويحاول الإجابة عنه، قائلا:" إن الإيمان الذي أُدركه هو المناسب" [6] ثم يمضي في تحليل هذه العبارة، موضحا أن هناك جانبان للإيمان ، الأول ذاتي والثاني موضوعي، وبإتحادهما يكتمل الإيمان. إذا قبلت الجانب الذاتي من الإيمان فقط ، فسوف يتحول هذا الإيمان إلى سذاجة؛ لأن الإيمان بدون موضوع، سينغلق على نفسه ويضحى إيمان خاص فارغ من الحقيقة، وإذا رضيت

بالجانب الموضوعي منه، لا يبقى منه شيئا، فيذوب في الموضوع ويصبح مجرد صورة أو اعتقاد أو شيء ميت.[7]

معنى هذا أن الإيمان عند كارل يسبرس له علاقة بمفهوم الشامل وهو من المصطلحات الصعبة التي نحتها واشتهرت بها فلسفته. والشامل هو الأصل الذي ليس له موضوع، وإن تموضع يفلت من الدراسة، أو هو الوجود الذي ليس هو موضوع وليس هو ذات وهو المجال الخالد للفلسفة. والشامل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :الله والعالم والنفس. والإنسان يعجز عن إدراك الشامل؛ لأن مجال إدراكه ومعرفته محدود لا يتجاوز المعرفة الظاهرية بتعبير "إيمانويل كانط".أما الشامل لا تطاله أي معرفة أو إدراك وهو الرب.[8]

وإذا عجز الإنسان عن بلوغ الشامل بالعقل والمنطق، فإنه يطاله عن طريق الإيمان .يقول "كارل يسبرس" " يبدو أن الإيمان واقعة مباشرة، تقابل كل ما يتعلق بملكة الفهم.إنه تجربة معاشة.ومن خلالها الشامل إما أنه يجعلني أقبل هذا الإيمان أو أرفضه"[9] .

ويقصد " كارل يسبرس" أن طرق المعرفة بمختلف أشكالها تعاكس التجربة الإيمانية، كونها واقعة يحياها الإنسان، والشامل(الرب) بلطفه وعنايته هو الذي يضيء للإنسان السبيل لتبني هذا الإيمان أو رفضه .

هذا الإيمان ليس إيمان تقليدي، ولا هو بإيمان ساذج، تمليه الحياة الرتيبة، والمثقل بالتعاليم الفارغة والشعارات اللامعة، إنه على حد تعبير "كارل يسبرس" إيمان فلسفي.يقول يسبرس:" إمتلاك الإيمان، هو أن نحيا بإلهام من الشامل.هذا الأخير ينبغي أن نتركه يقودنا ويغمرنا بمنحه." [10]

يرفض "كارل يسبرس" أن يكون لهذا الإيمان صياغة عقائدية لاهوتية، إنه إيمان كل فرد بذاته، فلسنا بحاجة إلى كتاب أو قسيس أو إلى تعليم ديني ، بل يحتاج إلى التراث الفلسفي الغربي[11]. ويعتبر كارل يسبرس سقراط شاهدا على هذا الإيمان .إذ تمكن سقراط من إدراك العلو دون أن يعتمد على أي مذهب أو ديانة، مع العلم أن عصره كان يعجُّ بالآلهة.

يرتبط مفهوم الإيمان عند يسبرس بمفهوم الألوهة.وبه ندرك أنه لا توجد معرفة مباشرة بالعلو(الرب)، كما هي معرفتنا لموجودات الطبيعة .والعلاقة بين الوجود الإنساني والوجود الإلهي(المتعالي)، تتم عن طريق الإيمان.هذا الإيمان يتبدى من خلال إنصاتنا شعوريا، إلى ما تقدمه لنا أعماقنا وما يجري حولنا في وجودنا.[12]

يتم ذلك عن طريق الربط بين مستويات الوجود الثلاثة لدى يسبرس : من الطبيعة إلى الذات ومن الذات إلى الرب.

إن العالم الذي نحيا فيه كوجود (طبيعة)، هو الوسيط الذي يقدم لنا الأحداث والوقائع، التي تدركها الذات بواسطة الشعور، لتدرك أنها في معرفتها إنما تنتمي إلى الرّب . لأن هذا الوجود الطبيعي بأحداثه ينتمي هو الآخر إلى الرّب.[13]

ج- مبادئ الإيمان الفلسفي

ينبني الإيمان الفلسفي لدى يسبرس على ثلاثة مبادئ وهي: وجود الرب، مطلب المطلق، زوال العالم. [14]وفي مؤلفه " مدخل إلى الفلسفة " يؤكد على الإيمان بالرب بلا براهين ويضيف مبدأين جديدين لا يذكرهما في كتابه

"الإيمان الفلسفي" وهما: فناء الإنسان ونقصه، الالتزام بطاعة الأوامر.[15] وهكذا يصبح الإيمان الفلسفي له خمسة مبادئ بدل ثلاثة. وسوف نعمل على شرح هذه المبادئ كل على حدا، ثم نحاول الإجابة على السؤال التالي: ما الفرق بين مبادئ الإيمان الفلسفي عند "كارل يسبرس " ومبادئ الإيمان الديني لدى المسيحيين؟

ج-1 وجود الله : الرب هو العلو*؛ الذي يتجاوز العالم ويسبقه . ولا يتسنى لنا البرهان على وجود الرب، رغم أن هناك الكثير من البراهين على وجوده . ومنذ عصر كانط كان هناك فكر جاد؛ أثبت أن هذه الحجج غير مقبولة، لأنها تطمح إلى مبدأ التحقق، كتحققنا من أن" الأرض تدور حول الشمس" أو أن " القمر كوكب".[17]

يحلل " كارل يسبرس" فكرة الرب وتاريخيتها مؤكدا؛ "أن المبدأ اللاهوتي يعلن أننا لا نصل إلى الرب إلا إذا كشف عن نفسه لبعض الناس، يبدأ بالأنبياء وينتهي إلى السيد المسيح. وبدون هذا الوحي يعجز الإنسان عن معرفة الرب. والإنسان لا يدرك الرب عن طريق الفكر، بل عن طريق الإيمان والتسليم".[18]

يعترض : كارل يسبرس " على هذه المسلمة؛ بأنه كان هناك يقين على وجود الرب قبل مجيء عالم الوحي بزمن بعيد، وما يُثمن ذلك هو "أن العديد من الأشخاص في العالم المسيح الغربي عرفوا الرب دون أن يعتمدوا على الوحي".[19]

وهناك مسألة فلسفية قديمة تعارض المبدأ اللاهوتي، وهي أن معرفة الرب تكون عن طريق إثباته. وبالطبع هذه الأدلة والبراهين كانت مؤثرة على الإنسان .

وإذا اعتبرت أدلة وجود الرب على أنها أدلة علمية تفرض ، نفسها على العقول كما هو الحال في الرياضيات والعلوم التجريبية، فإنها تغدو حينها خاطئة.و"كانط" رفض بدوره هذه البراهين من الأساس.[20]

ثم جاءت مسلمة أخرى معاكسة وهي مادام يمكن تفنيد هذه الأدلة على وجود الرب، فليس هناك إله.[21]

ويعترض أيضا "كارل يسبرس "على هذا الاستدلال، ذلك أن أدلة إثبات وجود الرب وعدم إثباته؛ ستغدو متكافئة، يقول:" والإله الذي يحتاج إلى دليل لإثباته، لن يكون إلها، بل يصبح شيء من أشياء العالم".[22]

هكذا يعلن "كارل يسبرس" أن الرب لا يمكن البرهنة عليه، وإن وجدت هذه البراهين، فهي براهين مزعومة ليس إلا.يقول" إن جميع البراهين التي عرفها التاريخ، تمثل محاولات لصعود الإنسان عبر الفكر إلى الرب".[23]

يصل " كارل يسبرس " إلى أن الرب ليس موضوعا للمعرفة، أو موضوعا للبرهان، كما لا يمكن أن نختبره بالحواس، يقول: " إنه غير مرئي، والسبيل إلى الوصول إليه هو الإيمان".[24]

يتساءل " كارل يسبرس " عن مصدر هذا الإيمان، أي من أين يأتي؟ يجيب : إن مصدره ليس حدود تجربة الإنسان في العالم، وإنما مصدره حرية الإنسان. والإنسان الذي يبلغ وعي حقيقي بحريته يظفر باليقين على الرب، يقول: "إن الحرية والرب لا ينفصلان".[25]

يسمي "كارل يسبرس" حرية الإنسان وجودا، ويقين الإنسان على الرب له ما لوجوده من قوة. إذ باستطاعة الإنسان أن يكون على يقين منه، لا على أن يجعله شيء من أشياء العالم، بل على أنه حضور أمام الوجود.

إن اليقين على هذه الحرية يستلزم اليقين على وجود الرب. وهناك علاقة بين إنكار الحرية وإنكار الرب.فإذا لم

يختبر الإنسان محنة الذاتية . فليس بحاجة إلى أية علاقة بالرب.بل يقتنع بالوجود الطبيعي الحسي، وبوجود الآلهة والشياطين.[26]

ج-2 مطلب المطلق

يميز "كارل يسبرس" بين مطلب النسبي ومطلب المطلق.المطالب النسبية تجبر الإنسان على إدراك غايات محددة، كضمان قوت يومه، والاندماج مع جماعة تحت نظم وقوانين، والالتزام دوما بحكمة عملية صارمة، وهنا تغدوا الغايات شرط الفعل الذي يسلكه الإنسان.

والأساس الذي يمنح شرعية لهذه المطالب هو المنفعة الحيوية أو المصلحة العملية. لكن سرعان ما يتساءل «كارل يسبرس» عن أصل هذه المطالب، فيجيب أنها صادرة عن سلطات خارجية أو وصايا شخص معين .كل هذه المطالب المؤسسة نسبية، لأنها ليست نابعة من أناي، إنها تكبلني وتحولني إلى كائن خاضع لغايات عملية أو سلطات خارجية. [27]

في المقابل من ذلك، هناك المطالب المطلقة، التي لها أصل في ذات الإنسان. إنها تلاءم اختياراته وصناعة قراراته. إنها نابعة من أناه الداخلي العميق وما يتجاوز هذا الأنا(المطلق).

تتدفق المطالب المطلقة إلى الإنسان من أناه الجوهري، بقطع النظر عن الوقائع الحيوية البسيطة، يعي بها الإنسان ذاته، ويملأ كينونته، ويقرر بأنه يجب أن يكون. هذا المسلك من الوعي يكون غامضا في البداية ويلوح رويدا رويدا مع تقدم الزمان.[28]

يحدد المطلق الغايات، وهو سابق لكل غاية، ليس المطلق الذي يريد، بل هو الذي يُلهم الإرادة . إنه مؤسس الفعل، يقول: « والأمر هنا لا يُعزى إلى المعرفة أو المنطق، بل هو منوطا بالإيمان».[29]

يضع «كارل يسبرس» مميزات المطالب المطلقة ويحصرها في ثلاثة نقاط :

أولا: ليس المطلق طريقة يتواجد بها الإنسان ضمن الحياة، بل قرار يصبح واضحا وجليا بواسطة التعقل، وينبثق من أعماق الإنسان، ويستحيل إدراكه.

يشير المطلق إلى المشاركة مع الأبدي، مع الوجود. منه يتدفق الولاء، وباستطاعة الإنسان الاتكاء عليه، في سكينة واطمئنان . وهو ليس له أصل طبيعاني، وهو يمكن تعقله* بفضل إيضاح الوجود[30].

ليس للمطلق حضور مؤقت في الوعي الإنساني، لأن هذا الأخير، إذا بذل طاقة كبيرة في فعله المباشر، يمكن أن تـتأرجح هذه الطاقة بين التردد والشك وتتحطم . ولا يمكننا أن نَعْبر طريق المطلق في الأفعال ذات الطابع الغريزي للإنسان، وعلة ذلك أن هذه الأفعال بإمكانها أن تتطور وتتحول بعامل الاكتساب.

لا يتواجد المطلق بصورة إضافية بما نسميه في اللغة الروحية « شيطان الإنسان»، والأصل في ذلك أن هذا الأخير يجهل الولاء و الإخلاص. وكل أشكال الأهواء، والمصالح الحيوية، وتأكيد الذات، مهما كانت قوتها، لا تمت بصلة إلى المطلق؛ لأنها نسبية ومعرضة للتلف والهلاك.[31]

إذن المطلق لا يوجد إلا في قرار الوجود، هذا القرار الذي ينبثق من التعقل، ويتمخّض من الحرية، ليست الحرية

الطبيعية، وإنما الحرية التي يتلقفها الكائن الإنساني من العمق الأصلي للعلو.وهذا الأخير يقرر ما هو كائن باحتضانه ورعايته لكينونة الإنسان، بكل ثقلها وأصالتها وإلا لما كان مطلقا. والمطلق محتجب، غير مرئي، بعيد، عسير المنال، نعرف أنه موجود، دون أن ندرك ماهيته أبدا.[32]

ثانيا: ليس للمطلق وجود إلا في ظل الإيمان، وبفعل الإيمان يمكننا اكتشافه. وحضور المطلق نعجز عن التحقق منه مثلما نتحقق من واقعة تجريبية، باصطناع شروطها وأسبابها المادية في المخبر. والبراهين التاريخية عليه، ما هي إلا علامات، يقول: « ومن يعتقد بأن المطلق يمكن إثباته، فاعتقاده لا يعبر إلا عن تعصب أو جنون».[33]

ثالثا: يتميز المطلق بأنه لا زمني في الزمان، أي أنه ليس معطى إنساني مند الولادة، وإنما ينمو ويترعرع مع الزمان ومع تقدم الوقت. ويصل إليه الإنسان عندما يتبع طريق القرار أو الحرية الوجودية، بوثبة لا محدودة .[34] والمطلق هو الذي يمنع هذه الحرية من أن تجد في نفسها اكتمالها واكتفاءها. فقفزة الحرية إلى المطلق، إلى ما وراء حدودها نحو مطلق ليس له شكل أو صورة هو في حد ذاته إدراكا لهذا المطلق، وهي بهذا تتلقى وتتمتع بالسكينة العليا في الديمومة و الزمانية.[35]

يكشف المطلق عن نفسه، في تجارب المواقف الحدية* التي تعصف بكيان الإنسان، بتكبده محنة المخاطرة عندما لا يكون مخلصا لذاته.[37]

يسوق لنا «كارل يسبرس» أمثلة من تاريخ الفلسفة؛ يدلل فيها عن موقفه من الإيمان، حيث تتجلى في شخصية « توماس موريس» الذي مات شهيدا، و برهن على طاقته الإيمانية الراسخة، بمعانقته للمطلق. و شخصية «سقراط» ، الذي كان يحيا بهداية من المطلق تحت شعار مقولته « لا أعرف شيئا». وواصل شق طريقه بدون أن يضل، أو يعكر صفو إيمانه، من خلال المعاملات العنيفة والشريرة التي تكبدها من السفسطائيين والمناوئين لفلسفته، والذين أرادوا أن يقبضوا على الحقيقة بشتى الوسائل والطرق، يقول: « ولا عجب أننا نجده يُفوّت كل الفرص التي أتيحت له للهرب من السجن، وآثر الموت بهدوء وسكينة واطمئنان، وحمل على عاتقه كل هذه المخاطر باسم الإيمان»[38].

ج-3 زوال العالم

تُظهر الحياة اليومية للإنسان، أن العالم ليس زائلا، وليس نسبي، بل هو مطلق الوجود، أبدي، يتحرك في ديمومة، و معارفنا حياله صحيحة لا ريب فيها. بيد أن العكس هو الصحيح. [39] إن العالم ليس كل شيء، وواقعيته ليست أصيلة، لأن الأصل هو المتعالي (الرب)، وكل أشياء العالم معرضة للزوال و العدم بما في ذلك وجود العالم .

يحفل التاريخ منذ آلاف السنين بالشخصيات الإنسانية، التي تجاوزت العالم، بحثا وتنقيبا عن المطلق. ومن أبرزهم : الزهاد الهنود، والرهبان المنعزلون في الأبراج العاجية، في بلاد الصين، وبلاد الغرب، انعزلوا عن هذا العالم لغاية التأمل، دأبهم الوحيد عيش تجربة المطلق ومعانقة الأزلي. وكأن العالم اختفى وانعدم وتلاشى.[40]

يبدوا أن العالم ككل موضوعي، واضح المعالم، وجميع جزئياته وموضوعاته تكشف عنه، لكن الحقيقة غير ذلك، فلا واحد من هذه المواضيع والأشياء تمثل العالم. كل تعريفاتنا للعالم وأحكامنا عنه ليست موضوعية، إنها تنسجم مع حالاتنا الانفعالية والمزاجية، يقول: "فالمتفائل ينظر إلى العالم بعين الرضي والسرور على أنه كاملا و متناغما، أما المتشائم فينظر إليه بعين السخط والحزن على أنه ناقصا وممزقا".[41]

تُفضي بنا هذه الذاتية التي ننظر بها إلى العالم إلى أحكام إجمالية، ترتكز اعتباطيا على الحالة التي يكون عليها واقعنا أو الأذى الذي يلحق بنا. بيد أن هناك أشخاصا توغلوا بشعورهم الباطني، وأطلوا على حقيقة العالم، فأدركوا أن عالمنا هذا ناقص وبدون أساس، وكانوا مهيئين بكل قوة وشجاعة لكل أشكال هذه الحقيقة، ومن كل ما يمكن أن يفاجئهم من مصائب ونكبات مع مر الزمان من داخلهم أو خارجهم.[42] وتتضمن هذه الاستعدادات ما يلي:

- الرب محتجب عن العالم ويختفي في اللحظة التي أَعزم فيها استيعابه، وهو يدنوا مني في تاريخيتي بصورة مفاجئة، في أي موقف وخاصة المواقف النهائية التي يعانق فيها الإنسان الكينونة ويطل عليها.

- لغة الرب نستشفها من خلال تجاربنا في العالم وإنصاتنا له، هذه اللغة، وهذا الإنصات للعالم يفضي بنا إلى الإيمان بأن العالم ليس جوهري في ذاته، لكنه يغدوا قنطرة بها نحسن الإنصات إلى لغة الرب .هذه اللغة تكون متشعبة في الوجود التاريخي.* أما في اللحظة الآنية، فتفلت منا.[44]

ج-4 فناء الإنسان ونقصه

يختبر الكائن الوجودي هذا النقص والفناء في المواقف الحدية، أو مشكلات الوجود الفردي، كما يحب أن يسميها "يسبرس"، والموقف الحدي هو الحالة التي يصل فيها الموجود البشري إلى حدود وجوده، وقد تكون هي الموت أو الخطيئة، أو المعاناة أو فراق من نحبهم، التناهي، القلق، الخوف من المستقبل ...إلخ، هنا ينهار الإنسان ويتحطم، ويشعر أنه يحيا في عالم يعج بالمخاطر والبلايا. مافتئت تهدد استقراره ووجوده من حين لآخر.[45]

لا يملك الإنسان من الحكمة والقوة ما يمكنه من تنسيق وجوده البشري وينظمه، إذ لا يمكن أن يحدث ذلك إلا عن طرق اللطف الإلهي. وهذا اللطف لا يُقصي في الواقع أهمية الحرية البشرية. ومعنى هذا أن هناك ارتباط وثيق بين اللطف الإلهي وقرار الإيمان الحر عند الإنسان. ولعل هذا هو الدافع الذي دفع بيسبرس إلى الجزم بأن " الحرية هي هدية المتعالي إلينا".[46]

إن اللطف الإلهي وعنايته بالموجود البشري، لا ينقطع ولا يزول، إلا بانقطاع هذا الأخير عن الصلاة، وهي ارتباط ومناجاة مع الرب المحتجب، فوقتئذ تصمت الكلمات ونبحث بكل شغف عن معونة الرب. و تُتوج هذه الصلاة بنداء نوجهه إلى الرب، بغية حصولنا على ما نرغب في حياتنا العملية.[47]

يقول بوخينيسكي :" الكائن الوجودي ليس له علة، وهو كائن ممزق، والوجود هو افتقار إلى الكفاية ليست له نهاية أو قرار، وهكذا فانه على هذا الوجود أن يرتبط بصلة مع(العلو) وإلا أصبح لا شيء".[48]

هذا يعني أن الطرق المألوفة التي يتكيف بواسطتها الكائن الوجودي مع عالمه ويستوعبه لم تعد كافية؛ لأنه موجود ناقص، ومتناه أمام لا تناهي الوجود، فيشعر بأنه في أمس الحاجة إلى العلو.

ج-5 الالتزام بطاعة الأوامر

يمضي "يسبرس " في هذا المبدأ إلى أعمق مما يصل إليه في المبادئ السابقة، لأنه يذهب إلى أن أطروحة "الإيمان الفلسفي " تحيل إلى معرفة مدى قابلية الكائن الوجودي لأن يحيا تحت طاعة أوامر الرب. يقول: " الأطروحة التي يتقدم بها الإيمان الفلسفي هي كالآتي: الإنسان بإمكانه أن يعيش تحت هداية الرب".[49]

وقد سبق وأن أشرنا إلى ذلك عند تحليلنا لمطلب المطلق، وعرفنا وقتئذ كيف أن المرء يسترشد سبيله و يشق طريقه بخطى راسخة، وبإلهام من المطلق يقول يسبرس:" في المطلق، نعتقد اعتقادا راسخا بأن الرب هو الذي يقودنا "[50]

بيد أن السؤال الذي يتعين على "يسبرس" أن يسلط عليه الضوء هو الآتي : كيف نستشعر وندرك هذه القيادة والهداية الربانيتين؟ يجيب يسبرس على ذلك، بأن الإنسان يحدث له أن يقع في مناسبات كثيرة فريسة للحيرة والتردد في اختيار قراراته المصيرية، فيترنح بين الإقدام والإحجام إلى القيام بالفعل أو عدم القيام به، وأمام هذه الحيرة والقلق ، يغمره فجأة يقين راسخ، شفاف، يضيء له سبيله، هنا يستشف المرء هداية الرب ولطفه يقول :" نحكي في العديد من سيرنا الذاتية، كيف أن يقين راسخ ينزل بنا، بعد مكابدتنا ألوان من الحيرة والعجز، حيال القرارات الخطيرة التي علينا أن نحددها إزاء وجودنا .فنختبر هذا اليقين في الحرية التي تتيح لنا القيام بالفعل. وعلاوة على ذلك فإن الإنسان يدرك بحزم ووضوح هذا اليقين، بل أن هذه الشفافية تغدو بمثابة هبة العلو إلى الإنسان " [51]

ويتجلى لنا من هذا القول، أن السبيل الوحيد الذي نقتاد به إلى الرب هو سبيل الحرية، إذ هي وثبة نثب بها إلى العلو، من خلال استعدادنا الجيد للإنصات له، أما من هو مصاب بالصمم الوجودي، فلن يصبوا إلى ذلك البتة.

ويدلل يسبرس أيضا على موقفه بحجة يستقيها من تاريخ الفلسفة، من خلال سيرة الأب الروحي للوجودية " سورين كيركيجارد" يقول: " كان كيركيجارد كل يوم يتأمل ذاته ويعرف سند الرب وهدايته له، من خلال أفعاله و أيضا من خلال ما كان يجري له في العالم. ذلك أنه كان على استعداد للإنصات للرب، ورغم أنه كان يدرك دائما ما كان ينصت، إلا أن معاني كثيرة غدت بالنسبة إليه غامضة . فالرب كان يقوده، ولكن ليس بطريقة يستوعبها، ولا عن طريق أوامر محددة، وإنما بواسطة حريته ذاتها، فكان يأخذ دائما قراراته؛ لأنه كان يعرف كيف يرتبط بعمق مع العلو." [52]

يتبين لنا من القول أن يسبرس يؤمن بوجود اتصال مباشر بين الأنا والرب. بيد أن هذا الاتصال لا يتحقق إلا بالإيمان. والكائن الوجودي ليس مخلوق وحيد قُذف به في هذا العالم، وترك فيه مهجورا، بل له سند وعون يتكئ عليه في كل المواقف.

خاتمة (الفرق بين الإيمان المسيحي والإيمان الفلسفي)

يبدو أنه ليس هناك فرق جوهري. فالمبدأ الذي تنطلق منه الديانة المسيحية والذي ينطلق منه يسبرس سيان، لا خلاف بينهما، فكلاهما يعتبران مقولة اللامعقول من وظائف الإيمان، ويجعل يسبرس مبادئ الإيمان الأساسية ثلاثة وهي : وجود الرب، ومطلب المطلق، وزوال العالم.وهي تقريبا نفس مبادئ الإيمان المسيحي وهي: وجود الرب، وخلود النفس، وخلق العالم.و يسبرس يؤكد على أن هذه المبادئ لا يمكن البرهنة عليها، ونفس الفكرة تتبناها المسيحية . ولوعدنا إلى المبدأين الآخرين للإيمان عند يسبرس وهما فناء الإنسان ونقصه، وطاعة أوامر الرب والالتزام بها، لبدا لنا أن الدين المسيحي يسلم بهما ضمنيا، و لا يخرج عن إطارهما.

بيد أن الحقيقة تجانب ذلك، فيسبرس يرفض فكرة الرب التي نجمت عن المسيحية؛ لأن رب المسيح يريد أن يُخضع البشر إليه، ويرهقهم بالواجبات والطاعات التي لا تغني ولا تسمن من جوع. ويرفض أيضا الوحي لأنه يعتبره سبيل يسير يجعل الإنسان يتّكل عليه للوصول إلى الحقيقة، وهو بلا ريب يعكس موقف الضعفاء والبلهاء من الناس

يقول: " إنه لا يطالبني بشيء: لا عبادة ولا مديح ولا دعاية :فهذه الأشياء جميعا تجعل من الإله واقعا من وقائع العالم، وحضورا ماديا محسوسا" [53]

ومن هنا يظهر جليّا أن الرب الذي يقصده يسبرس لا يلتقي مع رب المسيح .ذلك أن الرب الحقيقي هو الذي نرتقي إليه بحريتنا وبصيرتنا الفلسفية، إنه العلو الذي لا يوصف، وينفلت من كل قيد أو تحديد، وأي وضعية نصنّفه فيها، سوف ننقله من مجال العلو إلى مجال العدم.

الهوامش:

1 - فيلسوفة من جنسية سويسرية (1910-2000) تلميذة لكارل يسبرس، درست أيضا في هيدلبرغ و فريبورغ، تتقن اللغة الألمانية والفرنسية، من أهم مؤلفاتها «الوهم الفلسفي».

2 - ابن ذريل عدنان – **الفكر الوجودي عبر مصطلحه**، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1985،ص33.

3 - جوليفيه ريجيس «**المذاهب الوجودية**»- ص 219.

4 - **معنى الوجودية**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان- ص 76.

5 - **نصوص مختارة من التراث الوجودي**- ت- فؤاد كامل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987.ص 86.

6 - jaspers k -**la foi philosophique**. P11.

7 - Ibid.p11.

8 - بوخينسكي» **تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا**.ص 282.

9 K-**la foi philosophique**. P13 Jaspers.-

10 - Ibid. P24.

11 - حنفي حسن .**في الفكر الغربي المعاصر**، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ط 4، 1990.ص 310.

12 - حسن محمد سليمان ، **دراسات في الفلسفة الأوروبية**، منشورات دار علاء الدين،ط1، دمشق1998 .ص104.

13 - المرجع نفسه.ص 104.

14 - jaspers K. -**la foi philosophique**. P43.

15 - . jasper K - **Introduction a la philosophie** 115.

* هو من المسائل الغامضة والشائكة في فلسفة "كارل يسبرس".وهوعلى حد تعبير عبد الرحمن بدوي لا يخضع لإعتبارات فلسفية، ربما يقصد إعتبارات دينية.وهو يكافئ الله .وليس بإمكاننا إثبات العلو ببراهين تجريبية.ويعتقد "جون ماكوري" في مؤلفه(الوجودية)، أن هنا إرتباط في نظر يسبرس بين كلمة المتعالي والرب .وإذا كان لدى الإنسان تصور معين للرب، كأن يكون ربا شخصيا مثلا، فإن ذلك التصورلن يكون أكثر من شفرة للمتعالي.والرب والمتعالي ليس واحدا؛ لأن المتعالي ينتمي إلى مجال الشامل، أي الذي يأتي قبل الذات والموضوع، والمتعالي هو الشامل لكل شامل.الوجودية ص267.أو هو الوجود الأعلى الذي هو ما وراء الأنا والعالم والذي يطلق عليه الفلاسفة إسم الله. (معنى الوجودية ص.72)

17 - jaspers K. -**la foi philosophique**. P4344-.

18 - jasper K. - **Introduction a la philosophie,** p 50.

19 - ibid. p 51.

20 ibid. p 51.-

21 - ibid. p 51.

22 - jaspers K. - **Introduction a la philosophie**. P51.

23 - ibid. p 52.

24 - Ibid. p 55.

25 - Ibid. p 55.

26 - jasper Karl - **Introduction a la philosophie**.p56.

27 - Ibid. P71.

28 Ibid p72. -.

29 - Ibid p72.

30 * التعقل هو في جوهره افتراض وجود الوجود، وإدراكه في ذات هذا الافتراض وهو يحاول الحصول على نقطة ارتكاز راسخة، سواء في التوجه نحو اكتشاف معنى الأشياء أو معرفة النفس..

3- Ibid p73.

31 - Ibid p73.

32 - Ibid p74.

33 - jasper Karl - **Introduction a la philosophie**. P74.

34 - Ibid p75.

35 - جوليفيه ريجيس «**المذاهب الوجودية**» .ص 225.

* مقولة مركزية في فلسفة يسبرس وهي " الوجود، الألم، الموت، الخطيئة ،المصير...إلخ" وهي غير قابلة للتفسير .وكل ما تصنعه هو أنها تصنع الحدود للذات، وتهبها إمكانية الاتصال مع الوجودات الأخرى(المتعالي).

37 -- Ibid p69.

38 - Ibid p75

39 - jaspers Karl - **Introduction a la philosophie**. P108.

40 - Ibid p.108109-.

41 - jaspers karl -**la foi philosophique**. P48.

42 - Ibid p.49.

* ويقصد هنا طبعا " كارل يسبرس" لغة الشفرات.

44 - Ibid p.49.

45 - jaspers Karl - **Introduction a la philosophie**. P95.

46 - Ibib p85.

47 - Ibib p96.

48 - بوخينسكي» **تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا**.ص 295.

49 - jaspers Karl - **Introduction a la philosophie**. P89.

50 - Ibid p89.

51 - Ibid P89.

52 - Ibid p 90.

53 - جوليفيه ريجيس «**المذاهب الوجودية**» .ص227.